المنبوذة

بقلم : صبحي الجيار

عندما عاد « رجب » الى بيته بعد منتصف الليل كعادته ، فوجىء بأن زوجته ما زالت متيقظة . فحملق فيها بدهشة ، وقال بالفاظ مصدرها الخمر :

ـ عجايب .. ؟ اشمعنى بعض النهارده سهرانة لعلبه دلوقت ؟

فتطلعت اليه في خوف ، وهمست مرددة :

ـ ابدا ما فيش .. بس مش جايلي نوم ..

وتفرس فيها طويلا وهو يتمايل شلا ، ثم قال في شك :

ـ مش معقول .. لازم فيه حاجة .. مابين القرص على وشك ..

فمصمصت شفتيها وهي تشيح عنه بوجهها في اشمئزاز . كيف تتفاهم مع هذا السكران ؟ انها تعلم جيدا ان جوعه عندما يمتلىء بالخمر ، فانه يطغى على تفكيره المتزن ، ويفقده السيطرة على اعصابه . وعندئذ قد يرتكب اية حماقة دون تبصر بالعواقب ، وقد يستعمل يديه احيانا في تسوية المواقف الحرجة ، عندما لا يسعفه عقله المخمور .

حاولت « سهير » أن ترجىء مناقشته بشكلتها الى الصباح عندما يصفو روحها المتهور ، ولكنه اصر على ان يعرف سبب يقظتها ، وقد صور له عقله المخمور انها تعاقده ، أو تخفي عنه سرا ، فاقترب منها وامسك بكتفها ، وراح يهزها بعنف ، ويصيح في تهديد :

ـ لازم تقولي .. انتي عاكراني كرويا .. والا عاكراني كرويا ؟

دافنا اميمها وهي طايرة .. ما تقولي يا بت ..

فخلصت كتفها برفق من قبضته المرتعشة ، وقالت في توسل :

— السماح رماح يا رحمة .. روح اقلع ونام دلوقت .

— مش ممكن .. لازم أعرف حالا ..

قالها فى تحد واصرار .. فعادت تتصايل عليه مساعدا نفسه :

— روح نام ريما يهديك .. دانت مش قادر تقف على رجليك .

فصاح غاضبا وهو يحاول عبثا السيطرة على توازنه :

— ليه ؟ .. هو انا سكران ؟ .. انا بس مبسوط شوية ..

فقامت تسنده حتى لا يقع ، وأجلسته بهدوء على حافة السرير وجلست بجانبه ، وبدأت ترتب أفكارها حتى لا تفلت منها كلمة يفقد معها أعصابه الواهية ، وهمست فى صوت متهدج :

— اصل .. اصل أختى الكبيرة كانت عندى النهاردة ، و ... فقاطعها مستنكرا :

— .. وايه اللى جابها دى كمان ؟ مش أهلك متربين معك ..؟

— .. أموه .. اصلها كانت حاية تقول ان ماما ...

— .. ايه ؟ ماتت ؟

— بعد الشر يا أخى .. انت مالو موتها ليه ؟ ..

— مش انتى اللى بتقولى ؟

— هو انا لسه كملت كلامى ؟

— طيب مالها بقى الست والدتك ؟

قالها فى استهزاء ، مدعدع مقلتيها ، واحلت وهى ترمع المقل الى أعلى :

— بتقول ان جاتها خطرة ، والدكاترة قاطعين الأمل فيها .

فرمش بعينيه ، وهو يحاول أن يتشبه للموضوع وقد جذبه اهتمامه ، ولكن لهجته لم تخل من الاستهتار :

— طيب واسى جاتعملى لها ايه ؟ جاتشيلى رجلها من القبر ؟ مش هم اللى طردوكى وقاطعوكى من يوم ما اتجوزنا ؟

فاقتربت منه ، وربتت على كتفه حتى تهدىء من ثائرته ، وقالت فى ضعف واستجداء :

— لكن هى اللى طلبتنى يا رحمة .. نفسها تشوفنى قبل ما تموت ..

— ماتموت يا ستي من سنين داهيه . معنى ما عرفتش ان لها ست الا وهي بتموت !

— ما سألتش عنك من زمان ليه !

رات اهداب الثقيلة يرحيها الحذر ، ويشدها الصداع ؛ فآثرت ان توقف تيار الحديث قبل ان يورطه المصنف في قرار من العسير ان يتراجع عنه . مقامت تساعده على خلع ثيابه وهي تقول :

— طيب نام دلوقت ، وبكره الصبح نتفاهم .

ماخذ يتمتم بكلمات مجموعة ، متساخطا عليها وعلى اهلها حتى حمد بكلماته الصاخبة ، وعلا شخيره ، وراح في نوم عميق .

مللت سهير مؤرقة ، وقد استند بها الحنين الى امهـا ، التي تعلوم انفاسها الاخيرة حتى ترى ابنتها السودة ، وتراجعت افكارها الى الوراء .. الى ارمع سنوات عمرت ، يوم تحدت ارادة اسرتها ، وصممت على الزواج من رجب شقيق صديقتها ، الذي استحوذ على قلبها في اول خولة تخوضها مع كوميد . وكان وقتها يعلون اباه في محل بحارته السيد بعد ان تعثر مرارا في الشهادة التوجيهية ، ولم يتو على اقتحام ابواب الجامعة . وعندما وقعت سهير في طريقه لم يقدر ان يضيع الفرصـة ، وتراءى له مال سعيد في ميراثهـا من امها الثري .

وبدا يلقي شباكه حولها في حذق واحكام ، مستغلا احتدام شجن ابنتها بمسئول الوعود وشرح تباريح الوجد والهيام ، وتطورت العلاقات الى لقاء مختلس في مكان شـاعري ، ثم تعدد اللقاء من محله من الاهل ، حتى تمكن السهم من قتلها الذكر السادح .

وعندما تأكد رجب ان قتلها في جيبه ، تجرأ ، وطلبها من امها ، وكان يعلم مقدما ان طلبه مرفوض . ثم بدأ يمهد للفصل الاخير من المهزلة ، ساعد الغاطه بعناية ورسم على ملامحه مجاهد التعاسة ، وهمس في اذنها بصوت حزين :

— انا عارف حظي نحس .. انا ماقدرتش اعيش من غيرك ... انا لازم اسخر ..

وتفرع العاشقة الصغيرة ، وتهتف في لوعة :

— بعد الشر ما حبيبي .. دايما روحي فداك يا رجب ..

وهنا تحين ساعة الصفر ، فيلقي الذئب بورقته الاخيرة ..

الهرب ... نعم .. لماذا لا يهرب العاشـقان ، ويتزوجان سرا

بعيدا عن تحت اسمها المسند القضي ؟! .. وتجد الفكرة ترحيبا لدى العاشقة المتلهفة . وترسي في أحضانه مستسلمة .

اعتقد رجب أن هذا الاجراء العنيف سوف يضع عاقلتها امام الأمر الواقع . ولكن اباها كان حازما عنيدا . فأعلن تبرؤه من ابنته المارقة ، وأحرم عليها دخول بيته الى الابد . ولكنها لم تندم كثيرا ، فقد حمها الكبير كل يحجب عنها كل شيء .

وبدأ الملل يتسرب الى الزوج ، الذي حاول مرارا أن يصلح بين روحته وضمير ثرائها ، فباءت جهوده بالفشل . واخيرا وضع ما تبقى من كرامته على كفه ، وذهب بنفسه يطرق باب أسرتها . فخرج مطرودا بلا كرامة . ورجع اليأس الى اطباعه ، وتحولت روحته من كفر منتظر الى عبء يبوء به ، ويستعد حرءا من ايراده الهزيل .

ومرت أعياد الدنيا من خلف بسمته الصفراء . فأهمل روحته ، وأساء معاملتها ، والقى عن كاهله ثوب الملائكة ، فبدا على حقيقته مطا عربيدا دنيئا ، لا يتورع ان يواجهها بصفاقة مؤسفة :

ـ ما تعارقيني بقى يا بور النحس ... مش كفاية اهلك راميينك علاه على ..

وتسكب ندمها قطرات من منديلها ، وتهمس في ذلة وانكسار :

لك حق .. لو كان لي حيلة تقف قصادك ، ما كنتش تبيع وتشتري في كده ... لكن انا اللي استاهل ...

ـ حد شرمك على ايدك ؟

ويصدمها الرد الحاسم ، فتبلع لسانها وتصمت ...

وعندما احست انها الوحيدة ، طنت انها قد توطد عرى الود المفقود بين ابويها . ولكن الرياح كل قد أملت من أيدي سفير ، فبعد ان تمرد رجب على الحياة الزوجية ، واصبح لا يأوي الى بيته الا بعد ان توغل عقارب الساعة في عتمة الليل ، حتى يتفادى مجرد لقاء زوجته ، التي اصبحت في نظره مجرد «مقلب» شربه بخمورا .

وعندما بدأت الكلمات الاولى تتفجر الرشقتي اسمه ، وتمرد له تبعتها الصغيرة مستحدي اوله قرشا ، كان يدمعها عنه في ضيق ، ويصيح في استهزاء مغيظ :

ـ ابعدي عني .. انا حلاحق عليكي اني وابك أ .. يا قروحي تاخدي من جدك العني .. جتك داهية انتي وجدك ..

وتمتد الكلمات الى قلب الام كالسهام المسمومة ، منطوى على جروحها ، وتصبت مستسلمة . وتمضى شمعتها حتى يذيبها الندم .

واليوم ، موجعت سهير بأختها الكبرى على عتبة بابها . وكان عناق طويل مخضب بالدموع . ودهشت سهير لان اوامر ابيها كانت تحتم بيتها محطة محرمة على أخواتها ، وكل من لهم صلة بمثلاتها . ثم عرفت ان امها ذات القلب العليل تعانى سكرات الموت ، وتتوالى عليها نوبات الغيبوبة فتصحو خلالها ، تردد اسم سهير .

وتهمس سهير فى تشيع وقد انحدرت من مقلتيها بقايع الحنين :

ـ يا حبيبتى يا ماما .. واحشانى قوى يا ماما ... يارب طول عمرها .. ثم تتذكر عناد ابيها ، فتسأل أختها فى لهفة :

ـ وبابا عارف انك جاية عندى ؟

ـ طبعا .. انتى عارفة قد ايه بيحب ماما ... وما قدرش يرفض رغبتها الاخيرة .. خصوصا لما لقدنا كلنا نضغط ونتحايل عليه ...

ـ صحيح والنبى ماما موافق ارجع البيت ؟

فارتبكت أختها ، وقالت فى تردد :

ـ .. هو قال .. « تيجى مرة عشان امها تشوفها .. »

واطلقت جذوة الأمل فى نفسها ، فكبت رأسها فى ذلة واستسلام .

عندما تسللت شعاعات الفجر الى المكان ، كانت سهير ما زالت مؤرقة ، والافكار المتصارعة تدق رأسها بلا هوادة . انها تتمحل نسمات الصباح حتى يفيق زوجها المخمور . وتحاول اقناعه لتحظى بالموافقة على زيارة أمها المحتضرة .

وبينما كانت تعد له الفطور خطر لها أن تضرب له على الوتر الحساس ، لتصل الى مأربها ، وبدأت تنشر اطماعه قائلة .

ـ ممكن تكون دى فرصتنا عشان نسلطح مع بابا ..

فقاطعها متسائلا فى أمل :

ـ يا ترى لو طلبت أمك حتورثنى فيها ؟ .. والا حرمتك من الميراث ؟ ..

فأسرعت تقول ، وقد لاحت لها نجوة في عناده :

— مش معقول تحرمني .. دي لما تشـــوفني حاصنعت عليها حالص ، وعلى الاقل تصالحني مع بابا قبل ما بعد الشر .. يجرى لها حاجة .

مخبط المقعد بقبضته ، وصاح في غضب :

— بعد الشر ليه .. أ ... ما تسيبها تموت .. على الاقل نورث لها قرشين .

— اللهم يا رجب ان ربنا يطول في عمرها لغاية ما تصالحني مع بابا ..

كانت عائشة بمطلقة الحماس ، فاشرق وجهها الطيب ، وصاح بمرح :

— ... ومستنية اية ؟ قوم قوام روحي لها ..

فأسرعت الى حجرتها لتعد نفسها قبل أن يعدل عن رأيه وجاءها صوته المرح من الصالة :

— اسمعي يا ولية ... ما تتسـشي تاخدي معاكي البت الصغيرة .. يمكن تحن قلب جدها .. ان شـاء الله تعديه من نظرى .

دخلت سهير بيت ابيها بعد غيبة طويلة ، بجر قدميها المثقلتين بالحزن والخجل . وقد التصقت ابنتها بركبتها وتعلقت بذيل ثوبها الرخيص الكالح . والتقت سهير باختها الكبرى في البهو الفسيح ، فتركت لها ابنتها ، وهرعت الى حجرة ابيها . واندمجت الى الجسد الراقد في غيبوبة الموت . وارتمت صدرها باكية مولولة . كانت انفاس الحياة ما زالت تتردد في صدر ابيها ؛ ولكنها كانت غائبة عن وعيهـــا ، فراحت سـهير تهزها في لهفـة وجنون ، وتهتف في تشنج :

— بابا .. بابا .. ردى على يا حبيبتي يا بابا .. انا سهير يا بابا ..

وثبت على جدها محاولة اماقتها ، ولكن راس المحتضرة كان متطوح بين يديها في ضعف واسترخاء .. ثم احســت بيد قوية ترفعها في رفق ، وصوت اخشن يهمس في تهدج حزين :

— سيبيها دلوقت ، هي في غيبوبة .. يعديين حتفوق ..

التفتت في رهبة ، وقد بهرت انفها الصوت العميق ، مطالعها

وجه ابيها منتقما كئيبا ، موقعت شهوته حاطة الحنين . واحست برعشة شديدة مرت ترتمي على صدره وتقل كتفيه بدموع الاستغفار . ولكن ملامحه الجليدة سمرتها من مكانها ، وشلت ذراعيها بحقيبتها وانتظرت ان يبدو منه ما يشجعها على الحركة ، لكنه اشاح عنها ، وانصرف خارجا في خطوات سريعة ، كأنه يهرب من صمته امامها .

وعندما سمعته سهير يغلق الباب رات اختها الاخرى واخاها الصغير جالسين في ركن الحجرة ، انها لم تلحظهما عندما دخلت متجهة الى سرير امها .

وحرك الحنين قدميها في خطوات داخلة نحو اخويها ، مرتمي الصغيران بين ذراعيها طلبا لغذاء الدم ، ثم عادت تجلس على طرف السرير ، مركزة نظرها على الجالسين الصغيرين . حتى لمحت فيهما احتلاجة الحياة ، ثم انحدرت العيال الدامعتان لمحتضنا وجه سهير الملهوف ، وامتسحت الام في صمت وهمست في سرات واهنة :

ـ سهير ! . بنتي ! .. الحمد لله اني شفتك قبل ما اموت .

فهتفت سهير في صوت يكاد يضمحل ، وهي تضع راسها على صدر امها ، الذي طالما منحها الامن والحنان :

ـ بعد الشر عليكي يا ماما ...

ـ انا خلاص انتهيت يا بنتي .. قلبي المجروح ما عدش يحتمل اكثر من كده .. المهم اني اطمن عليكي يا سهير يا بنتي ..

وتأملت وجه ابنتها الشاحب الذي حفرت فيه التعاسة كهوفا فوق شدقيها ، وقد اذبل البكاء عينيها اللتين كان الشقاء يتفجر منهما قبل ان يحرفها الشيطان الى غلطة العمر .

وهرت الام راسها في اكتئاب ، وهي تقول :

ـ انا عرفت كل حاجة يا سهير .. انتي اتعذبتي كتير يا بنتي ، لكن معلش .. ربنا يصلح لك اوقاتك ..

واشمأزت سهير على نفسها بعد ما آلت من ذل وهوان ، وتمحرت في محيط عنيف يزلزل كيانها الهزيل ، واستطردت الام هامسة :

ـ .. اعذريني يا بنتي .. ما كناش نعرف ان الحالة وصلت بيكي لحد كده .. لكن انوكي لسه واحد على خاطره منك .. روحي اندهي له يا سهير ..

وبحت الترد من عينيها ، مقالت بحماس

ـ روحي يا ستي ماتخافيش .. تولي له ملما عليراك ..

وقامت سهير لتتجه نحو الباب من مطوات وطة سليمة ، وخرجت الى الصالة ، فرات اباها جالسا على كرسي كبير ، ومد أجلس حفيدته الصغيرة على ركبته ، وعندما لوحت سهير لأمه ، انتفض واقفا وابعد الصغيرة عنه في حركة سريعة ، وصاح مغطيا موقفه .

ـ حد ياخد البنت دي بعيد عن هنا ، لحسن عايلة دوشة ..

واتجه الى القاعدة المطلة على الحديقة ليتصادى مواجهة سهير ، التي اقتربت منه ، وناداته من خلف ظهره في نبرات مستجدية :

ـ بابا ..

مالتفت اليها عابسا ، وقبل أن تفرح شفتاه بكلمات عاصفة ، قالت في صوت ذليل :

ـ بابا عاوزه حضرتك ...

ودون أن يبدي بكلمة اتجه الى سرير المحتضرة ، فما كادت تلمحه حتى امسكت بيده الضخمة ، وترمتها من فمها تريد تقبيلها ، سحب قبضته في رفق وهو يمسح باليد الاخرى على جبينها الندي بالعرق البارد ، وهمست الزوجة في توسل وانتهال :

ـ لي طلب اخير عندك يا عشمان ..

وبدا صدرها يعلو ويهبط في انفاس لاهثة متعثرة ، وأسبلت جفنيها في ضعف ، فهتف الزوج في ارتياح :

ـ ما ترهقيش نفسك يا اميمة ... انا عارف اللي عاوزه تقولي ايه ... الكلام الكتير يتعبك ...

وعادت الام تقاوم سكرات الموت ، وترفع جفنيها الثقيلين ، وتهمس في كلمات متقطعة سريعة :

ـ سامحها يا عشمان .. دي برضه بنتك ... وربنا يبعد لعنده التقيل ، ما تيجي على روح الوحش ده تاني

وطال صمته في وقفته الشامخة ، ثم انحنى عليها ، وقال في تهدج :

ـ اطمني يا اميمة ... ربنا يقدم ما فيه الخير ..

ملرتسم شبح ابتسامة على الشفاه الصفراء ، وهمست في امتنان :

— الله يربح قلبك ..

وقطع الصمت صوت الطفلة الصغيرة ، تدخل الحجرة مندفعة نحو امها وهي تقول في ابتهاج :

— شوفي ياماما .. جدي جاب لي شيكولاته ..

والتفتت سهير نحو امها الذي استدار على صوت حفيدته ، والتقت عيناه بنظراتها الصامتة . فتشهد في تأثر ، والتمعت عيناه المغرورقتان بنداء حنون . ثم انخلعت سهير بلا شعور ، فارتمت على صدره باكية صارخة ، وارتمع الجسدان المحتضران ، فرات الام ذراع روحها تلتف في حنان حول اخته الصامتة .. وهبطت نظراتها الكليلة ، فالتقت بحفيدتها تلتهم قطعة الشيكولاته في تلذذ وسعادة .

ثم ارتخى الجسدان .. الى الابد ..